القوى العاقلة في الحيوان

لحضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا (ب م)

(تابع لما في الجزء السابق)

اما البهيمة فليس لهـا علم ولا صناعة الا ما دفعها اليهِ الطبع من اول امرها ولا تزيد عليهِ بتقدم او نجاح لانهـا تولد عارفة بكل ما تحتاج اليهِ وقادرة عليهِ فلا تحتاج الى مربٍّ ولا معلم فانها تسعى حالاً في طلب الرزق ولا تخطئ لحكمةٍ فُطرت عليها فلا تزيد عليها مهما طال الزمان . ولا ريب ان هذا العجز ناشئٌ عن عدم اقتدارها على التقليد العقلي او التمثيل لانهـا لا تدرك من المحسوسات الا ما اثر فيهـا اي لا تدرك من المرئيات الا ما اثر في بصرها ومن المسموعات الا ما اثر في سمعها فلا تدرك منها سرًّا خفيًّا ولا معنًى كليًّا فان الانواع الداجنة قريبة الى الانسان تسمع كلامهُ وترى اعمالهُ من قبل زمن التاريخ ولم تتعلم منهُ شيئًا واذا حاول ان يعلمها غلبتهُ غريزتها ولم يؤثر فيها علم ولا تربية لانها ليست اهلاً لذلك وان اثر فيها فانما يؤثر في افعالها بالشدة عليها من خارج لا بالطبع من داخل و يصلحها كما يصلح اغصان الشجر وحينئذٍ فيكون الفضل لهُ لا لها ولذلك اذا تركها عادت الى اصلها ورجعت الى طبعها كما ترجع القوس الى حالهـا اذا ارتخى الوتر الذي يشدها وهو دليل ظاهر على ان المبدأ الفاعل فيها خارج عنها

والنتيجة ان الافعال التي تأتيهـا البهيمة عن معرفة جزئية محسوسة كما تقدم لا تفعلها عن تعقل وروية اذ لا تدرك نتيجتها اي لا تدرك العلاقة اللازمة بين فعلها وما يأتي عنهُ لان ذلك امرٌ معنويٌّ لا تأثير لهُ في الحواس

وليس لها قوةٌ تدرك بها غيرها ولذلك تؤثر فيها الظواهر لا الحقائق والحكمة التي تبدو فيها ليست منها ولا تنسب اليها بل الى من وضعها فيها فالبهيمة اذاً محصورة في دائرة جزئية لا تخرج منها ابداً

واما الافعال الادبية فلا ريب ان الدين والآداب امران متلازمان في الانسان لا يفترقان لان من اول وجدانياته عرفانهُ نفسهُ بكونهِ موجوداً فاول ما ينتقل اليهِ ذهنهُ ان لهُ خالقاً ابدعهُ واذكان يدرك العالم المنظور بحواسهِ فلا يتردد في ادراك وجود علةٍ لهُ و يستدل بعقلهِ على صفاتهِ اللازمة من القدرة والحكمة والكمال بالذات والافعال والصلاح والعدل وما شاكل ويدرك من ثم انهُ رسمٌ ضعيف من حقيقة وجودهِ او شرارة من نور كمالهِ وانهُ يجب عليهِ ان يتقرب اليهِ بعمل الخير والسعي فيهِ وان لا بد من المسألة والحساب وعقاب من يستوجب العقاب والجزاء بالخير لمن يقصد الخير وغير ذلك من المبادئ الدينية الكلية . ولا ينكر ان هذه المبادئ ليست واحدةً في وضوحها لدى كل انسان الا انها لا يخلو الانسان منها بالاطلاق مهما كان جاهلاً منحطاً فعلى هذه المبادئ الراسخة في نفسهِ الواضحة لعقلهِ نشأت آدابهُ الظاهرة وشرائعهُ الاجتماعية التي هي عبارة عن حقوقهِ وواجباتهِ وبناءً على ذلك يكون الانسان دينياً باطناً وان كفر ظاهراً واديباً طبعاً وان فسد عملاً

اما البهيمة فاذ ليس لها قوةٌ مفكرة فلا تقصد في اعمالها غايةً ولا تفقه معنى امر ولا نهي وليست حرة في اعمالها لتتصرف فيها فالشريعة كلها لها لا عليها فهي لا تطلب حقاً ولا تقوم بواجب ادبي اي لا شريعة عندها الا

الغريزة التي رُكّبت فيها وفُطرت عليها فان المحبة الوالدية والغريزة الاجتماعية والمحبة الجنسية لا تخرج فيها عن كونها غريزة يدفع اليها الطبع كالالفة الكيماوية لا تأتيها عن قصد وتعقل اذ ليس عندها مبادئ كلية ادبية تقيس عليها ولا لها قوة عقلية تتصرف فيها لترعى واجباً او ذمةً فهل يُظنّ ان الفرس يقصد التأديب اذا رفس وان الوحش يقوم بالواجب عليهِ اذا افترس وان اناث النحل تجاهد في سبيل الله اذا قتلت ذكورها او تقصد الصيانة والتعفف. هذا ولا ينكر ان الانسان كثيراً ما يزيد في اعمالهِ فساداً على اعمال الحيوان ومع ذلك لا يزال لهُ ضمير يحكم على فسادهِ فهو ابداً يأمر بالخير ويسر بفعلهِ وينهى عن القبيح ويندم على عملهِ كما انهُ اذا اخطأ عرف خطأهُ وغلطهُ وعاد الى صوابهِ حكماً او عملاً

والنتيجة ان المبدأ العاقل في الانسان يختلف كل الاختلاف عن المبدأ الحساس بدليل الوجدان وادراك الكليات الاولية وفعل التجريد والحرية مما لاحظَّ فيهِ للبهيمة مطلقاً ولا دليل ظاهر على تعقلها في لغتها لا لفظاً ولا معنى ولا في اعمالها بتقدم او نجاح ولا بعلم ولا صناعة ولا شريعة ولا آداب اذ لم تخرج عن حد الطبع الذي رُكّب فيها بقوة اقوى من الحديد فلا يقدر ان يخرجها الانسان عنهُ بعقلهِ ولا يؤثر فيها ادب المؤدب ولا تعليم المعلم مع ان الانسان لم يزل يعتني بتربيتها من قديم الزمان فالببغآء لم يتعلم منهُ معنى الكلام ولا تعلم منهُ الكلب الصيد ولا الثور فن الزراعة ولن يزال الحمار حماراً بطبعهِ صابراً على ذلهِ والاسد وحشاً ضارياً لا يتمدن ولا يأنس الى ما شآء الله